BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

رؤيـــة نفسيـــّة لأحوالنـــــا

قدري حفني:

أعرف أنكم متشوقون لسماع ضيفنا الكريم، ولذلك لن أستغرق وقتا طويلا على الرغم من أن مهمتي ليست سهلة، فتعريف شخص بقامة الدكتور أحمد عكاشة أمر صعب، فالأستاذ الدكتور أحمد عكاشة قمة وعلم في مجال تخصصه، والعالم المتخصص حين يقرر أن يغادر برج تخصصه ليتحدث في الشأن العام، فإنه يقوم بمغامرة، لأنه في برج تخصصه وفي قامة الدكتور أحمد عكاشة الذي وصل إلى أعلى مستوى عالمي في الطب النفسي، هناك تقاليد وبروتوكول للحوار معه وهناك ضوابط لأنه في تخصصه لا تُردُّ له كلمة إلا بحسابات معقدة. ويتعامل الدكتور أحمد عكاشة مع نوعين من الناس، يتعامل مع تلامذته من أهل التخصص، ويتعامل مع مرضاه، وفي الحالين كلمته لا تُرد في أغلب الأحيان.

شاء الدكتور أحمد عكاشة أن يفتح الباب ويخرج من هذا البرج العاجي ليخاطب العامة ويخاطبوه، وخطاب العامة يحتاج إلى أمرين: أولا إلى قدرة كبيرة على التبسيط والقبول بمعنى أن يكون مقبولا لدى من يخاطبه، وثانيا أن تكون في استطاعته المجادلة وهو أمر لا يُتطلب بالضرورة لمن يخاطب أهل التخصص.

أحمد عكاشة:

نحن جميعًا شهود ومتهمون في آن واحد، وفضل الشهادة أنها تنبه وتحذر وتقترح الحل، كل بقدر اجتهاده وأمانته. وقد سلكت سبيل الاجتهاد من سنوات بعيدة، وكان يقيني – وما زال – أن العلم هو ما ينفع الناس. وكم حاولت بوصفي محترفًا للسلوك الإنساني الفصل بين مجريات الحياة وما ألقنه لطلبتي من علم؛ غير أني ما لبثت أن وجدت نفسي عاجزاً عن ذلك، فنحن نعيش في مجتمع مفعم بالهموم، تواطأت على صنعه ظروف وصروف. صحيح.. لكل همومه، لكن همومنا مختلفة.... فهي مصرية خالصة، قد نتشارك في بعضها مع مجتمعات أخرى، لكننا ننفرد بفوضى من نوع خاص.. فقد

عجز مجتمعنا حتى الآن عن تبني قضية واحدة تبنيا جماعيا، على الرغم من أن حولنا الكثير من القضايا التي تستدعي التناول الجماعي.. لكنها تبقى دون حل.. ورغم أن معاناتنا في أغلبها جماعية إلا أن الحلول تأتي دائماً منفردة..

تتنوع المشاكل والمعاناة، ولا يزال مجتمعنا حتى الآن عاجزا عن الاتفاق على حلول.. وأبشع ما يصيب الإنسان إحساسه بالعجز. وكل ما أرجوه بعد نظرة متأملة متأنية على الأحوال ألا يخيب أملي في شيوع المحبة. فلن يخلف المرء وراءه – ولم يخلف من قبل – سوى شرف المحاولة، سواء أصابت أم خابت.

ثقوب واسعة في الضمير العام

إذا كنا نشعر بالأسف على ما آلت إليه الأخلاق والقيم مما يمس الضمير العام، فإن مسؤولية الإصلاح وتدارك الأخطاء وإيقاظ الضمير العام ليست مسؤولية فرد وإنما هي مسؤولية جماعية تضامنية.

كيف ينشأ الضمير العام:

يولد الطفل بريئًا، تلقائي التصرف، سليم الطوية. وفي سنوات التنشئة الأولى يتكون لهذا الطفل ضمير هو في الواقع رافد من ضمير والديه، فمن خلالهما يعرف قاعدة الثواب والعقاب، والطفل في جميع الأحوال يعجز إدراكه المحدود عن استيعاب مفاهيم الوطن أو الخير والشر أو العقيدة الدينية، وهكذا يكون ضمير الطفل مرآة لوالديه.. ثم تبدأ مراحل النمو من خلال التقدم في العمر، والتعليم، والمخالطة الاجتماعية فيبدأ الضمير في التكون، ليتسق ضمير الفرد مع قيم المجتمع وتقاليده وأعرافه الاجتماعية ومعتقداته الدينية. هناك من الأفراد من يتوحد مع هذا كله، وهناك من يمكنهم تكوين ضمير خاص بهم لا ينفصل عن الضمير الكلي للمجتمع، ويكون صاحب هذا الضمير الخاص قادرًا على أن يتناول ما يسود مجتمعه بنظرة نقدية، إضافة وتعديلاً أو رفضًا أو توكيدًا، وهذه الفئة من أفراد المجتمع يتوهج ذكاؤهم وتتسع ثقافتهم بحيث يتجاوزون المتاح للآخرين من معارف. هكذا الأنبياء والفلاسفة والعلماء والمفكرون على حين تبقى الأغلبية الشعبية متوحدة مع الضمير الاجتماعي الجمعي، ذلك العنصر المؤثر في ضمائر الأفراد.

لست أجد معنى للضمير – عامًّا كان أو خاصًّا – إلا هذا التعبير القرآني العظيم (النفس اللوَّامة)، الرقيب الخاص داخل كل إنسان أو "الأنا الأعلى" التي تحاسب الإنسان في داخله حسابـــًا عسيرًا عما بدر منه من ممارسات وسلوكيات يأباها الضمير العام أو الخاص. ويشكِّل الضمير العام في المجتمع هذا الحاجز الصلب المتين أمام ألوان الانحلال والفساد والآثام والجرائم. كما يختلف التزام الأفراد بهذا الضمير العام في المجتمع عن التزامهم أمام الخالق – سبحانه – مخافة غضب الله والعقاب في الآخرة.

يتعرض الضمير الاجتماعي العام إلى هزات وقلاقل، وعلى قدر عنفها أو بساطتها، يتبدى لنا حجم الأسف على ما اعترى هذا الضمير العام من عطب، أو ما لحق به من ثقوب أصبح ينفذ من خلالها ما لا يجوز أن يغض الضمير الاجتماعي العام الطرف عنه، بينما كان في الماضي لا يقبله ويأباه مستنكراً. فنحن جميعاً نذكر – خاصة أصحاب الأعمال المتقدمة – أن الدهشة كانت تعترينا إذا سمعنا من يحكي في استنكار أنه توجه لمرفق حكومي لقضاء مصلحة هي من حقه، فإذا الموظف – صغيراً كان أو كبيراً – يفاجئه بطلب رشوة – مادية أو عينية – حتى يقضي له مصلحته. كذلك كان من النادر أن يستجيب صاحب الحاجة لمثل هذا الابتزاز، فضلاً عن إصراره على قضاء مصلحته دون أي مقابل، وقد يحذر هذا الموظف علنًا من مغبة هذا المسلك المشين.

اليوم يأتي السياق مخالفاً تماماً لما كان عليه في الماضي، فصاحب الحاجة – أي حاجة – يحكى بدهشة عن أنه ذهب لقضاء مصلحة ما، وأنه قد أجيب إلى ما أراد دون أن يطلب الموظف مقابلا عينيا أو ماديا، فهو حين قصد هذه المصلحة الحكومية قد استقر في نفسه أن "الدفع" أمر معتاد، وكأنه قد أصبح القاعدة، والقاعدة قد أصبحت الاستثناء.

دهشة المستمعين إلى صاحب الرواية الأولى كانت معبرة عن صلابة هذا الجدار الفولاذي، أو الضمير الاجتماعي العام الذي يأبى ما يحدث، ودهشتهم في الرواية الثانية للرواية تكشف عن أن هذا الجدار، أعني الضمير الاجتماعي العام، قد تم اختراقه واعترته الثقوب إلى الدرجة التي سمحت بأن تكون الرشوة هي القاعدة.. فلا شيء بدون مقابل.

وثمة ما هو أدهى وأمر، وهو الانتقاص من حقوق الآخرين، فيأخذ من لا حق له ما هو من نصيب غيره. أليس هذا ناقوس خطر ينذر باتساع الثقوب في الضمير الاجتماعي العام؟

أعذار لغياب الضمير العام:

لا شك أن حياتنا كانت تحكمها أعراف تنطوي على قيم جليلة كالمودة والتراحم والحرص على احترام إنسانية الآخرين، حين كان المجتمع يرفض الفردية والأنانية الذاتية، وحين لم يكن شعار "أنا ومن بعدي الطوفان" قد ارتفع بعد، وحين لم نكن نعرف هذا التسيب العارم الذي اجتاح حياتنا المعاصرة.

ولا بد أن نعترف أن مجتمعنا الآن بات تعوزه القدوة، فالأفراد يعرفون ويسمعون الكثير عن انحرافات تؤرق ضمائرهم، بل هم يرونها تقع في أوساط ومستويات كان الأولى أن تتسم بالنـــزاهة، كما يشهدون أن العقاب قد يلحق بالبعض دون البعض الآخر.. الخطب في الشعائر الدينية لا تقدم للناس تفسيرًا مقنعًا لما أصاب المجتمع من عطب! والحلول إما شعارات غوغائية أو غير واقعية.

الانتماء الذي يتحدثون عنه:

كلنا نستشعر أن المواطن المصري قد أصبح وكأنه جزيرة منعزلة مستقلة عن الوطن، يشعر بوحدة غريبة وانكفاء على الذات دون أن يجد حلاً أو مهربًا خاصًّا لمشاكله؛ الأقرباء والجيران والأصدقاء والمعارف لم يعودوا عزوة المواطن، بل باتوا إما غرباء عنه أو انقلبوا خصوماً له في بعض الأحيان... وبين الحين والحين ترتفع شعارات من قبيل "إعادة بناء المواطن المصري" و"الانتماء.. كيف يتحقق" إلى غير ذلك من الشعارات.. والذين يتحدثون عن انتماء المواطن المصري لا يهتمون كثيراً بالبحث عن دور هذا المواطن في وطنه، ولا ينادون بتدارك وتلافي الأسباب التي حدت بهذا المواطن إلى أن يصبح جزيرة منعزلة.. نحن أمام مواطن ليس له بالفعل أي دور في مجريات أمور وطنه. وما زال أصحاب نظرية أن الشعب قاصر، والحكام هم الأوصياء عليه متمسكين بنظريتهم، ناشطين في تطبيقها بكل الوسائل وفي كل ما يمس حياة المواطن؛ يريدون من المواطن أن يحتشد كلما احتاجوا إلى هذا الاحتشاد، ويلزمونه بأن يتفرق عن غيره وينصرف إلى نفسه إذا انتفت الحاجة – حاجتهم هم أيضًا – إلى احتشاده! هل قرأ أحدنا بعناية عقداً وقعه المواطن مع الدولة نظير انتفاعه بخدمة من خدماتها ودفع المقرر عليه كعقد التليفون أو الكهرباء مثلاً؟ إنها عقود إذعان بالمعنى الكامل للكلمة.. فعلى المواطن أن يذعن دائما بالدفع وألا يتوقف عن ذلك مهما كانت الأسباب، حتى ولو كانت هذه الأسباب تعطل خطه التليفوني وتوقف الخدمة!

هكذا تتنوع الخبرات المرّة لهذا المواطن المصري، إلى الحد الذي يجعله غير عابئ بشيء في الوطن بداية من حقه الانتخابي وانتهاء بحرصه على عدم الإسراف في استهلاك المياه، هذا إذا توفرت صنابير المياه في منـــزله أصلاً.. فإذا حدّث أحدٌ هذا المواطن عن أمر من الأمور العامة بادر محدثه على الفور "يا عم .. يعملوا اللي يعملوه .. البلد بلدهم" يقولها هذا المواطن دون أن يفسر لك من الذين جعل البلد "بلدهم"!

وقد نجد مواطنًا آخر وقد اتسم بالعدوانية الشديدة على كل ما يمت للملكية العامة بصلة، يحطم أو يمزق هنا وهناك إذا لاحت له الفرصة، يتهرب من ضريبة واجبة أو يغافل محصل سيارة النقل العام، وإذا استطاع اقتلع شجرة نابتة في الشارع، أو يدهس النجيل الأخضر عمداً أو عن غير عمد! فهو لا يشعر أنه جزء من هذا الكل ولا أن له حقًّا فيما يخربه من ملكية عامة.

التشريح النفسي... للشخصية المصرية

لا نستطيع أن نعمم على أي شعب سمات خاصة في شخصيته لأن كل السمات توجد بين أفراد الشعب بطرق متباينة، ولكننا نستطيع أن نصف السمات الغالبة على شعب معين. وقد تعددت الأبحاث والكتب التي صدرت عن الشخصية المصرية والشخصية العربية.

نردد دائما كلمة الشخصية دون أن نعرف، في أغلب الأحيان، معناها المحدد. فالشخصية هي الصورة المنظمة المتكاملة لسلوك الفرد التي تميزه عن غيره، أي أنها عاداته وأفكاره واهتماماته وأسلوبه في الحياة.

وعندما نقول أن الشخصية ناضجة فإننا نعني بذلك وجود تناسق في السمات مع تحمل المسؤولية، وتقبل التضحيات المختلفة دون مقابل. وليس من الضروري أن يصل الشخص البالغ الى مستوى الشخصية المتكاملة لمجرد اكتمال نضجه الجسماني. فقد نجد أحيانا فتاة عمرها ثماني عشرة عاما وتتمتع بنضج في شخصيتها، كما نلاحظ رجلا في الخمسين يعاني من عدم النضج. لا يوجد ما يسمى شخصية قوية أو ضعيفة!!!

هل للوراثة دخل في تحديد سمات الشخصية؟ أو بعبارة أخرى، هل يرث الأولاد عن آبائهم ملامح شخصياتهم؟

إن عامل الوراثة ضعيف في تحديد سمات الشخصية المتصلة بمعاملات الأشخاص الاجتماعية كمواقف الصداقة او العداء بالنسبة للآخرين. وكذلك في الممارسات الأخلاقية والاتجاهات التقدمية او الرجعية أو التطرفية، والتذوق الجمالي، ولو أن البعض يجزم بدور الاستعداد الوراثى حيث يولد الإنسان باستعداد خاص بغض النظر عن الوالدين. لكن العامل الوراثي يقوم بدور مهم في تحديد درجة الانطوائية والانبساطية وكذلك يغذي الثبات أو عدم الاتزان الانفعالي وكذلك السلوك المنحرف الشاذ.

ويعتقد الباحثون في وجود ثلاثة أبعاد للشخصية والتي يمكن التحدث عنها فيما يلي:

١- الصورة الذاتية وهي ما يعتقده الفرد عن نفسه خاصة عندما يخلو لذاته وينقب في دخائله.

٢- الصورة الاجتماعية وهي تحدد إدراك المجتمع والناس لهذه الشخصية وكيف ينظرون إليه ويقيمون صفاته ويحتمل أن تكون مختلفة تماما عن الصورة الذاتية وهي تشمل مالا يقل عن ٧٠-٨٠% من حياتنا.

٣- الصورة المثالية وهي ما يصبو إليه الفرد لتحقيقه من تطلعات وآمال وهي الصورة التي يكافح من أجل الوصول إليها. إن التوافق بين هذه الصور الثلاث هو أحد أبعاد الصحة النفسية.

ويعتمد نجاح الفرد في الحياة على تفاعل عاملي الذكاء وسمات الشخصية ولكن أضيف أخيرا عامل مهم هو المعدل الانفعالي أو الذكاء العاطفي، بمعنى مدى التواصل والدفء في التعامل مع الآخرين. فالذكاء وحده قد يرقى بالفرد لأخذ الشهادات والحصول على الدرجات، لكن النجاح في الحياة يعتمد على المعدل الانفعالي والتواصل الاجتماعي الدافئ. بل أن جزءًا كبيرًا من الجاذبية الجماهيرية تعتمد على هذا المعدل أكثر منها على الذكاء أو الشخصية. ويقال أيضا أن أحد أسباب الطلاق هو غياب التوافق الانفعالي بين الطرفين. ويذكر مثلا أن كنيدي وريجان رؤساء أمريكا السابقين، بالرغم من متوسط

ذكائهما، إلا أن قوة المعدل الانفعالي جعلتهما من ذوي الجاذبية والكاريزما القوية. أما كارتر الذي يتميز بذكاء مفرط ومعدل انفعالي منخفض فقد كان قليل الحظ في الجاذبية الجماهيرية ونفس الشيء ينطبق على رؤسائنا فحتى إذا تساوى ذكائهم فلا شك أن الذكاء العاطفي يختلف.

تتميز الشخصية المصرية بالانبساطية، وحب الاختلاط، والدفء العاطفي، وسهولة الإيحاء (فيما يسمى بطيبة القلب) مع الإحساس بالمسؤولية الأسرية، والانتماء والتماسك مع الدين والأسرة أكثر من الوطن. ومع ذلك توجد بعض السمات التي تحتاج لإيضاح وتفسير وتعديل حتى نستطيع ان نواكب ثورات العالم التكنولوجية وسأحاول أن أفرد لكل منها مناقشة بسيطة سهلة. فالكثير من المصريين يتميزون بما يسمى بالشخصية السلبية/العدوانية والاعتمادية وينعكس ذلك على سبيل المثال في النكتة السياسية وهي سمة عدوانية ولكنها سلبية، كذلك الاستكانة ثم التقوقع حول الذات والأسرة بغض النظر عن المبادئ، وعدم التواصل والمثابرة والتغير المستمر والعجز عن الابتكار، والتصور الخاطئ للدين، وإهمال الواقع المادي والانغماس في القرارات الانفعالية والعاطفية و أخيرا فوضى اللغة.

الشخصية الاعتمادية.. السلبية... العدوانية... والاستهوائية

يتميز قطاع كبير من المصريين و العرب بسمات الشخصية الاعتمادية، والسلبية العدوانية، والاستهوائية.

وتتميز الشخصية الاعتمادية باعتماد شامل على الآخرين أو السماح لهم بتولي مسؤولية جوانب مهمة في حياة الشخص وتسخير الاحتياجات الذاتية للآخرين الذين يعتمد عليهم الشخص وإذعان غير مبرر لرغباتهم وعدم الاستعداد لمطالبة هؤلاء الآخرين (الذين يعتمد عليهم الشخص) بأي مطالب حتى ولو منطقية. ونلاحظ ذلك في سلوك الكثير من المصريين متمثلا في كثرة النقد والسخرية من سلوكيات يقوم بها هذا الشخص ويسقطها على الآخرين؛ فهو ينتقد التسيب، وعدم الانضباط ، و[إنه مفيش فايدة]، ولكنة يمارس نفس السلوك. كذلك تسقط هذه الشخصية كل الكوارث على السلطة دون أن تقوم بأي عمل إيجابي في مواجهتها.

تتميز الشخصية الاستهوائية في أقصى صورها بتفخيم في الذات وأداء مسرحي، و تعبير مبالغ فيه عن المشاعر، و قابلية للإيحاء والتأثر السهل بالآخرين ومشاعر سطحية وهشة، وانغماس في الذات وعدم وضع الاعتبار للآخرين و اشتياق دائم للتقدير والنهم للإثارة والنشاطات التي يكون هو أو هي فيها مركزا للانتباه، وسلوك ابتزازي دائم للوصول إلى المنافع الذاتية.

وترتفع نسبة هذه الشخصية في مصر والبلاد العربية بسبب وسائل التربية والسلبية والطاعة العمياء. فالشخصية الاستهوائية ليست مرضا ولكنها تقلب في العاطفة، سريعة التأثر بالأحداث اليومية، معجبة بذاتها وانفعالاتها القوية.

التمركز حول الذات.. وعدم المثابرة.. وسلوك رد الفعل

الصحة النفسية هي القدرة على التمركز حول الآخرين والاهتمام بهم وبالمشاكل العامة وخلق التوازن بين القدرات و التطلعات، وحب العطاء والعمل والإحساس بحرية التعبير والآدمية، وعلى العكس من ذلك يكمن الاضطراب النفسي في التمركز حول الذات والتقوقع حول النفس والأسرة بغض النظر عن المبادئ أو القيم أو العادات.

كذلك هناك علاقة واضحة بين الازدحام والصحة النفسية، فلكي يتمتع الإنسان بالقدرة على الإبداع والابتكار يجب أن يعيش في مساحة جغرافية مقبولة. لكننا إذا نظرنا إلى القاهرة اليوم فسوف نجدها من أكثر مدن العالم ازدحاما، حيث تبلغ كثافة السكان قرابة ٥٣٠٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع، وهذا يعني أن الإنسان في القاهرة لا يستطيع الاهتمام سوى بشئونه الخاصة، ولا يأمل في أكثر من الأمان لأسرته بغض النظر عن الوطن أو الهدف العام ومن ثم يفقد الانتماء الوطني والهادف. فالجملة المشهورة "هو أنا حاصلّح البلد وحدي؟" أو "كلهم بيعملوا كده، هاعمل زيهم" هو الشعار السائد.

كذلك تتصف الشخصية المصرية بالاتكالية السلبية المتمركزة حول الذات. ولننظر مثلا إلى تنشئة الطفل، فهو يرى والديه يهتمان بالدروس الخصوصية للحصول على النجاح في الامتحانات، وتمكين ابنهم من التفوق في الفوز بدرجات بغض النظر عما تعلمه أو اكتسبه من معرفة، فينشأ الطفل بإدراك أن العمل الجاد لن يوصله إلى هدفه وإنما الاتصالات الشخصية هي وحدها الطريق إلى النجاح. كذلك ينشأ الطفل في متاهة أن العمل الجاد والإخلاص والصدق والأمانة ليست هي الأسس في بناء الحياة، وإنما الالتفاف والرياء والمعيار المزدوج في تقييم الأخلاقيات. هذا ما يجب تغييره في سمات الشخصية المصرية: ويجب احترام العمل الناجح واتخاذ القدوة ممن سبقونا والتحلي بالمثابرة ومواصلة الجهد حتى يتواكب شعبنا مع التغيرات العالمية أي الثقافة العلمية.

التصور الخاطئ للدين

يقول جيمس بريستد في كتابه الشهير "فجر الضمير" إن المصريين هم الذين أوجدوا الضمير الإنساني لأنهم أول من عرفوا الله وكذلك آمنوا بالعالم الآخر و لم يتمكن أحد قبلهم من إدراك هذا الواقع". ويبدو أن الإيمان بالله واليوم الآخر يتوارث من خلال الجينات في المصريين. فقد آمن المصريون بالله قبل الأديان السماوية، ثم آمن المصريون باليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام. إذًا لا مفر من الاعتراف بأن الشعب المصري من أكثر شعوب العالم إيمانا بالله ولكن للأسف أن غالبية المصريين لهم تصور خاطئ عن الدين.

فالدين معاملة ونية وإحساس داخلي عميق بالإيمان، وليس مجرد القيام بالطقوس بغض النظر عن محتواها والمقصود منها. فنحن نعلم أطفالنا الخوف والعذاب وجهنم وننسى الحب والطمأنينة والسلام

والجنة. عندما يكذب الطفل نقول له مصيرك النار. وعندما يقول الصدق لا نحاول تعزيزه بالثواب. فينشأ الطفل على الخوف من العذاب والنار بدلا من الحب والجنة.

إن إهمال العمل للقيام بطقوس مبالغ فيها هو أمر ضد الدين. كذلك نرصد توازيا مقلقا ما بين الخرافات والدين. فالكثيرون يعتقدون في أعمال الجن والعمل والأحجبة والزار والذكر وهي كلها أمور بعيدة عن مفهوم الدين الصحيح. وقد أفتى علماء الدين بأن كلمة الجن معناها أحد مخلوقات الله الخفية التي لا تلبس أحدا ولا تكلمه ولا تتعلق به. وإنما تعني كلمة "الجن" الشيء المستتر أو المختفي، فالجنين حوله ستار من الرحم، والجنة حولها ستار يصعب إدراك الإنسان لها، والمجنون لديه ستار حول عقله، ومن ثم فإن الجن شيء مستتر وغير مرئي أو معروف. ومع ذلك نجد الكثير من العامة المرضى، خاصة المرضى النفسيين يلجأون للعلاج التقليدي الشعبي والذي عادة ما يصبغ بطابع ديني عن مفهوم خاطئ.

إن الشفاعة من خلال الأضرحة والمقابر لا علاقة لها بالدين، فالخرافات تنشأ مع التخلف الفكري في فهم الدين وللأسف فإن أجهزة الإعلام والدعاة لا يهتمون بإزالة هذا المفهوم بل أحيانا ما يعززونه ويدعمونه.

وأخيرا هناك محاولة البعض البقاء على الأفكار السلفية والتي بنيت على الاجتهاد وليست فروضا، ونحن نرى يوميا الفتاوى تتواكب مع تغير العلوم، فنجد الفتاوى في ختان الإناث ونقل الأعضاء وتأجير الرحم الخ. والإبقاء على حيوية الدين يجب أن يتواكب مع متغيرات العصر والاجتهاد الديني في تفسير المتغيرات.. إن ذلك هو التحدي الحقيقي لأي دين .. ولا أقصد هنا تغيير الفروض المذكورة في الكتب الدينية ولكن كيفية تفسيرها بشكل يدعم نمو الإنسان وسعيه للخير والمحبة اللذين هما أساس كل الأديان.

إهمال الواقع المادي والانغماس في القرارات الانفعالية

ينطبق هذا الأمر على الكثير من المشروعات حيث أن صانعي القرار من الشخصيات التي تتحمس وتنفعل وتثير كبرياء الوطن، دون أن تمر هذه المشروعات بالعمليات التحليلية المنطقية اللازمة. بل أنهم أحيانا ما يتهمون من يخالف آراءهم بالخيانة، والانفعال الزائد أو السرعة في اتخاذ القرار مما يجعلهم يبدؤون مشاريعهم دون دراسة مدققة لينتهي المشروع بالخسارة والإخفاق وخيبة الأمل، وكم من المليارات أهدرت بسبب سمات هذه الشخصية.

إن إهمال الواقع المادي المنطقي والانغماس في القرارات الانفعالية الحماسية تُعدُّ دليلاً على عدم النضج العاطفي والشخصية الاتكالية. ولا تقتصر هذه السمة على فئة دون أخرى فهي السائدة من الأمير الى الخفير ومن الجاهل إلى المتعلم ومن الفقير إلى الغني، بحيث تصبح الأمة كلها فيما تتخذه من قرارات وما تقيمه من مشروعات قابلة للتأرجح حسب المزاج والانفعال وليس بناء على خطة مدروسة، طويلة المدى.

هذا وتقوم الفردية وانتفاخ الذات بدور كبير في دعم هذه السمات، حيث يتلاعب صانع القرار السياسي بحماس الآخرين وانفعالاتهم المتأججة مما يسبب ويلات كثيرة يدفع ثمنها معظم أفراد الشعب.

إن تأليه الحاكم هو سمة من سمات المصريين منذ الفراعنة، الأمر الذي يعوق الايجابية والمبادرة في اتخاذ القرار. ولننظر إلى ما حدث أخيرا حيث أصدرت محكمة النقض حكما ببطلان انتخاب أعضاء مجالس الشعب والشورى ومع ذلك لم تنفذ الأحكام بما يعنيه ذلك من استهتار بأهم مبادئ حقوق الإنسان وسيادة القانون. ثم يأمر الرئيس بتنفيذ أحكام النقض فيهرع الجميع لاتخاذ اللازم. ماذا يعني ذلك؟ الاتكالية السلبية.. الخنوع.. عدم المبادرة.. عدم المسؤولية.. الاعتمادية على صاحب القرار مما يهدر الكثير من القرارات الحكيمة التي تصدر عن أبناء هذا الشعب.

الشخصية المصرية.... و فوضى اللغة

تُعَدُّ اللغة أحد الأسس التي تبلور الشخصية الوطنية. إن فوضى اللغة التي نعيشها في مصر الآن، جعلت الشخصية المصرية تتأثر تأثرا سلبيا في عملية التعبير عن الفكر. فاللغة لها تأثيرها في سمات الشخصية، ويتضح ذلك في مشاهد اللغة في الفيلم الأمريكي والتي تختلف تماما عن اللغة فى الفيلم البريطاني، وعنها في الفيلم الفرنسي أو الياباني. و إذا نظرنا إلى اللغة في أفلامنا العربية واستبعدنا عامل اللهجات المختلفة تبين لنا تفرد اللغة التي تستعملها الشخصية المصرية بألفاظ وجمل تحتاج لدراسة نفسية عميقة، ويحتمل أن تكون بداية هذه اللغة الفريدة مع مسرحية مدرسة المشاغبين وتأثيرها في الأجيال المختلفة، فكثير من الشخصيات المصرية تستعمل لغة تعكس الاستهتار والتسيب الاجتماعي والانفلات النفسي وعدم تحمل المسؤولية والسخرية من القدوة والرمز و القيم.

تعتمد المنظومة الفكرية والقدرة على الابتكار والتحديث وحاسة الإبداع، بل والتذوق الجمالي والثقافي على تواصل وتوحد اللغة. إن ثبات وصدق اللغة هما بعض من الأسس المهمة للثقافة الحية والتقدم العلمي. فلا يمكن أن يكون للمنـــزل لغة وللشارع لغة أخرى وللأغاني لغة ثالثة ثم للجرائد لغة رابعة، وللقرآن لغة خامسة. لأن هذه الفوضى تسبب تشتتا في الفكر، وضحالة في الثقافة، وانهيارا في التذوق الأدبي والجمالي.

وإذا لاحظنا ما حدث في مصر في العشرين سنة الأخيرة من الفوضى في لغتنا العربية لوجدنا أن الطبقات الميسرة تزج بأبنائها في المدارس الأمريكية والفرنسية والبريطانية والألمانية، فيتكلمون هذه اللغات أفضل من العربية، ويصبح الطفل في تشتت فكري يجعله ينجح في الامتحانات لكنه غير قادر على الابتكار. وحتى في المدارس المصرية نجد أن مستوى تدريس اللغة العربية تدنى بشكل ملحوظ، حتى أن خريج الثانوية العامة غير قادر على استخدام لغة عربية صحيحة. بل أن صانعي القرار أنفسهم والمسؤولين

وأجهزة الإعلام أصبحوا يتكلمون لغة ليست بالعربية أو حتى العامية، ولكنها خليط من عدة لغات دخيلة أحدها على الأخرى.

وإذا نظرنا إلى الأفلام والأغاني التي يعشقها الكثيرون فسوف نجد بها إسفافا شديدا في اللغة، ونحن نعلم أن الشباب والشابات عادة ما يتوحدون مع أبطال الإعلام من سينما وتليفزيون أو نجوم الأدب أو الفن، والسؤال المطروح هو ما هو المثال الذي يجدونه للتوحد معه؟

ولا نجد في الجامعات استثناءا من ذلك، وسأعطي مثلا بدراسة الطب والتي تتم حتى الآن باللغة الانجليزية. بينما ينص ميثاق ممارسة مهنة الطب على ضرورة أن يفهم المريض اللغة التي يتكلم بها الطبيب. فالطبيب والمريض الألماني يتكلمان الألمانية والطبيب والمريض السويدي يتكلمان السويدية والطبيب والمريض الأسباني يتكلمان الأسبانية ولكننا في مصر والبلدان العربية المستعمرة سابقا نجد أن المريض يتكلم لغة والطبيب يتكلم لغة أخرى لا يفهمها المريض، وهو الأمر الذي يمكن عَدُّهُ أمرا لا أخلاقيا حيث إنه يتجاوز حق المريض في الفهم الدقيق لحالته وما يقرر بشأن صحته. أضف إلى ذلك أن اللغة الانجليزية التي يستخدمها الطبيب عادة ما تكون لغة ركيكة علميا ومن ثم فإنه يصبح فاقدا لكل من اللغة العربية والانجليزية.

عادة ما يكون الإبداع والفكر باللغة الأم ولذا نجد أن الإبداع بين العلماء في مصر محدود إلا إذا وُجدوا في بيئة تتوحد فيها اللغة، حيث يبرز عندها النبوغ والعبقرية المصرية. وجدير بالذكر أنه مع بدايات تدريس علم الطب في مصر في القرن التاسع عشر أصر الفرنسيون على أن يكون التعليم الطبي باللغة العربية واستمر الحال كذلك حتى جاء الاستعمار البريطاني واستغنى عن الأساتذة المصريين واستبدل بهم الأساتذة الانجليز واستمر التدريس باللغة الانجليزية من وقتها وحتى اليوم.

لقد أثرت فوضى اللغة في قدرتنا على التذوق الجمالي وأصبحنا لا نميز الشيء القبيح من الجميل، بل وأصبح التذوق الجمالي مقصورا على فئة خاصة حتى لا تشترك فيها فئات الشعب المختلفة. إن دور الإعلام في هذا المجال هو الارتفاع بالتذوق الجمالي والثقافي للشعب، والاعتماد على نوعية المادة المقدمة وليس على كميتها. ولذلك فمن الأفضل لهذا الشعب أن يستمر الإرسال التليفزيوني لعدة ساعات مكثفة تتميز بالمستوى العالي في الأداء والمضمون بدلا من أن يستمر البث طوال الليل والنهار بغض النظر عن المضمون، إضافة إلى ما يترتب على ذلك من تقليل من ساعات النوم وضعف الأداء في مجال العمل.

إن نهضة الأمة المصرية والعربية تعتمد إلى حد كبير على الاهتمام بقدرتنا على التواصل بلغة موحدة ومحاربة فوضى اللغة وتمكين كل فئات الشعب من التذوق الثقافي والجمالي وتجنب انغماسها في طرب وتسلية لا طائل من ورائها سوى نسيان معاناتها اليومية بدلا من العمل على مواجهتها.

وإذا اهتممنا بالجانب الثقافي باعتبار أن اللغة هي أبرز ملامحه وأدواته، نجد أن الهيمنة الثقافية تعد نتاجا مقصودا أو غير مقصود لظاهرة العولمة؛ فلا شك أن أذرعه العولمة الطويلة المتمثلة في الشركات المتعددة أو المتعدية الجنسيات وشبكات الإعلام العملاقة والأخطبوطية، وما يصاحب مواكب العولمة من أنماط السلوك والممارسات، يمثل اختراقا صارخا لخصوصيات الشعوب وثقافاتها الأمر الذي ينذر بالتهديد لهويات هذه الشعوب، ولا شك في أن الشأن الثقافي لكل أمة هو الذي يحدد بقوة ملامح هويتها، وعندما نتكلم الآن عن الثقافة فإنما نتكلم عنها بمنظورها الواسع المستمد من عقيدة الأمة ولغتها وتراثها المشترك.

و تعد اللغة من أهم الملامح التي تكون هوية الأمة و تميزها من غيرها من الأمم، فاللغة والدين هما العنصران المركزيان لأي ثقافة أو حضارة، كما يؤكد ذلك هنتنجتون في كتابة "صدام الحضارات" ومن هنا فإن أي تحد لثقافة ما ينطوي على تحد للغتها، فهل تواجه العربية تحديا من هذا النوع في عصر العولمة؟

إن لغةً تعد أجنبية لدى ٩٢% من سكان الأرض لا يمكن أن تكون لغة عالمية. إن لغةَ الاتصال العالمية بين مختلف الثقافات والحضارات، هي لغة تبادل المنافع بين أبناء التجمعات الثقافية المختلفة فيما بينهم، وهم لا يتكلمون بها داخل التجمعات التي يستعملون فيها لغاتهم الخاصة.

إن الشعور المبالغ فيه بأهمية اللغة الأجنبية ينتج غالبا عن الانبهار بكل ما هو أجنبي. وغنيٌّ عن الذكر أن هذا الشعور ينبع من الإحساس بالهزيمة النفسية التي يعانى منها الإنسان العربي في هذا العصر، والإعجاب المتنامي بصانع الحضارة المعاصرة الذي يمثل المنتصر والغالب. وقد تحدث ابن خلدون عن مثل تلك الحالة التي يعجب فيها المغلوب بالغالب فيتشبه به "في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده".

لقد أثبت عدد من الدراسات العلمية التي شملت نماذج من دول العالم المختلفة أن استعمال اللغة الأم وبخاصة في المراحل الأولى من التعليم أولى من استعمال اللغة الأجنبية، ليس من باب التعصب القومي أو الشعور العاطفي نحو الذات، وليس من باب رفع الشعارات، ولكن استنادا إلى حقائق موضوعية علمية تشير إلى الآثار طويلة المدى التي يسببها تعليم اللغة الأجنبية للصغار على انتماءاتهم الوطنية، فيكرس في نفوسهم الغضة التبعية للأجنبي.

إن هذه النماذج جميعا بلا استثناء لا تعلم اللغة الأجنبية في المرحلة الأولى من التعليم كما أنها لا تدرس العلوم بتاتا بلغة أجنبية في أي مرحلة من مراحل التعليم.

التحدي الإعلامي، والتحدي اللغوي المتمثل في الازدواجية اللغوية بين العامية والفصحى، والتحدي العلمي والتقني هي كلها هموم طويلة المدى وعلى جانب شديد من التعقيد.. لكنها جميعا تتصل بالتخطيط التربوي والعملي الذي لابد من انتهاجه من أجل صياغة مشروع جديد للنهوض الحضاري.

إن ما ذكرته من الحديث عن اللغة الأجنبية لا يعنى عدم فائدتها أو أهميتها ثقافيا وعلميا ولا يعنى الدعوة إلى الانعزال والتقوقع والاكتفاء بالعربية دون الإطلال على ما عند الآخرين، و إنما يعنى توظيف هذه اللغة الأجنبية بما يناسب حاجة المجتمع والأفراد وإعطاءها الحجم المناسب لها بوصفها لغة أجنبية لا يحق لها أن تقصى العربية عن موقعها، و لا أن تجور عليها على ألسنة أهلها أو مجتمعهم.

و قبل أن أختم هذا الحديث أود أن أزف إليكم خبرا سمعته من أحد الزملاء المشتغلين بدراسات الحاسب الآلي والمعلوماتية مفاده أن دراسة أجريت في اليابان على اللغات العالمية تستهدف معرفة أكثر اللغات وضوحا صوتيا في استخدامات الحاسب الآلي، وأثبتت هذه الدراسة أن اللغة العربية تتصدر هذه اللغات في هذه الناحية بينما تأتى اللغة الصينية في آخر القائمة مما يؤكد تميز اللغة العربية من ناحية الوضوح الصوتي.

الشخصية العربية الإسلامية من أكبر أهداف الغزو الثقافي و نتائجه

إن الأجدر بالطفل الصغير أن تخصص سنواته الدراسية الأولى لإجادة لغته العربية، والارتباط بثقافته، وتنمية المحبة لها من خلال الولاء لوطنه، وتراثه وأمته. وأن يستغل كامل وقته من أجل أن يلم بالمهارات الأساسية. وليس علينا سوى أن نلحظ ما أنجزته دولة الكيان الصهيوني التي أحيت لغة مندثرة فجعلت منها لغة العلوم والأدب والحياة.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أنه في بداية القرن العشرين كان هناك أكثر من ١٥٠٠٠ (خمسة عشر ألف) لغة حية وصلت اليوم بالتدريج إلى ما يقارب ٥٠٠ لغة، و يقال أن هناك ما يقرب من ٣٠٠ لغة تعد في قائمة الخطر، و يتوقع أن تستخدم البشرية في القرن الحادي والعشرين ١٢ لغة فقط و يرى بعضهم أن اللغات ذات الانتشار سوف تكون في حدود ست لغات، وتستحق اللغة العربية أن تكون إحداها.

الشخصية السيكوباتية وحب السلطة

بين عدد من أنماط الشخصية السيكوباتية يوجد ما يسمى بالسيكوباتي الخلاق وهذا أكثرهم خطورة على المجتمع وعادة ما يصل إلى مناصب قيادية، وهو قادر على خداع الشعب بأكمله، حيث يظهر بصورة الملاك الطاهر الطيب الذي يحنو على الأطفال، ويقيم الصلاة، ويعمل الخير مع حب السلطة والقيادة، ولا مانع من التضحية بكل صداقة، أو مبادئ في سبيل ذلك. وأحيانا ما يصل هؤلاء إلى الحكم أو مناصب قيادية وبالطبع تكون النتيجة خراب وويلات وحروب على هذا المجتمع الذي خدع بقائده السيكوباتي الخلاق أو الزملاء الذين خدعوا برئيسهم في العمل الذي لا يهتم إلا بانتفاخ ذاته وتمسكه بالسلطة بغض النظر عن المبادئ أو القيم أو الصداقات أو المشاعر.

إن هدف هذا السيكوباتي الخلاق هو تحقيق ثلاثة أهداف مشتركة: السلطة والقوة والمال أو تحقيق واحد أو اثنين منها ليتحقق الثالث بالضرورة.. فالقوة تأتى بالمال.. والمال يأتي بالقوة والقوة تأتى بالسلطة.. والسلطة تعنى القوة، وهما معا يأتيان بالمال.. أي أن هدف هذه الشخصية هو أن يتمتع وحده بأعظم ما في الحياة وأهمها، وهى: السلطة والقوة والمال.

لقد ثبت تاريخيا، ثم من خلال الخبرات المكتسبة أن معظم، إن لم تكن كل، الحروب الدموية التي قامت في العالم قام بها زعماء يعانون الاضطرابات الشخصية.. وأنا هنا لا أتحدث بالطبع عن الحروب الدينية و العقائدية والسياسية وحروب التحرير، بل أتحدث عن الحروب العدوانية التي تستهدف السيطرة والإبادة وحكم الغير. . والأمثلة على امتداد التاريخ أكثر من أن تحصى ابتداء من قيصر والإسكندر حتى ميلوسيفتش وصدام حسين وجورج بوش وأضرابـــُهم كثير.

وقد أكتشف أطباء النفس العالميين هذه الحقيقة فما كان منهم إلا أن أرسلوا خطابا رقيقا إلى هيئة الأمم المتحدة يعرضون فيه تشكيل لجنة علمية لفحص الزعماء والقادة ممن يشعلون الحروب التي يموت فيها الشباب من أجل مجد وعظمة هؤلاء الحكام.. وكنا هنا نقصد الفئة التي تصل إلى السلطة فجأة أو مصادفة أو عن طريق انقلاب عابر، و لم نكن نقصد هؤلاء الزعماء المسيـــَّسين ممن يصلون إلى الحكم بشكل طبيعي من خلال أحزاب شرعية يتم تصعيدهم فيها إلى أن يصلوا إلى السلطة. هؤلاء لا خوف كبير منهم، لأنهم يصعدون بشكل ديمقراطي. لكن المشكلة في تلك الفئة المغامرة المحبة للسلطة التي تصل إلى الحكم وتبدأ في ممارسة شرورها من خلاله.

ماذا كان رد الأمم المتحدة على خطابنا المتفائل هذا؟

قالوا لنا شكرا على جهودكم .. ولابد أنهم ضحكوا على سذاجتنا ، لأن أي رئيس أو قائد لن يوافق أبدا على أن يتعرض لفحص نفسي كي نحكم نحن كأطباء على سلامة قواه العقلية.

ولكن هناك من ثبت علميا وتاريخيا أنهم قد حكموا وكانوا مرضى عقليين بالفعل؟

ففي مراحل سابقة كان مرض الزهري منتشرا و لم يكن أحد يعرف أسبابه.. وأحد مظاهر هذا المرض هو ما نسميه "العته الشللي"، وهو يصيب الإنسان بأمراض عقلية، وفى العشرينيات من هذا القرن كان " ٨٠٪"من نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية يعانون الزهري في المخ، وهو يدمر الأعصاب وليس له علاج.. وقد عاش حكام وزعماء وقادة وفنانون وأدباء بهذا المرض، وكانوا يحكمون ويبدعون وهم مرضى، واتخذوا أخطر القرارات وأمخاخهم مدمرة بالزهري .. وظلوا كذلك إلى أن ماتوا.

إن من هؤلاء من يتمتع بكاريزما تجعل الآلاف يلتفون حوله كالمسحورين مع أنه ليس أكثر من مجرد أفاق. وفى التاريخ الشخصي لمثل هؤلاء، سوف نجد بعض السمات التي تشير إلى سلوكهم هذا، مثل الكذب، السرقة، الفشل الدراسي، والهروب من المدرسة أو الجامعة. وتكمن خطورة صاحب هذه الشخصية في أنه تبدو علية علامات الصدق والأمانة والحرارة والحماس حين يتكلم، فينخدع أي فرد أمامه ويسهل عليه أن يتصيد فريسته على الدوام. ولا نستطيع من وجهة نظر علم النفس أن نَعُدَّ صاحب هذه الشخصية مريضا عقليا، ولذا فهو يتحمل مسؤولية كل أفعاله .. وقد اختلف الباحثون في أسباب نشأة هذه الشخصية، وهل مصدرها عوامل وراثية، أو أسباب فسيولوجية في الجهاز العصبي، وخاصة أنها تأتى أحيانا بعد أمراض معينة كالحمى المخية والصرع .. كما قد يفسر سلوك هذه الشخصية بعض الأسباب البيئية والتربوية والاجتماعية والنفسية.

كيف يحكم أمثال هؤلاء القادة السيكوباتيين؟

يحكمون ، لأن الله خلق الناس على مستويات من الذكاء .. ففي العالم كله، ولدى أي شعب في الدنيا هناك ٦٠% من البشر من متوسطي الذكاء وهناك ٢٠% من المجموع الكلى يتمتعون بمستوى ذكاء أقل من المتوسط، وأخيرا هناك ٢٠% هم المتميزون وذكاؤهم فوق المتوسط .. وهذه الفئة الأخيرة هي التي تحكم الـــ ٨٠٪ من مجموع الناس في أي مجتمع . والغريب أن هؤلاء الـــ ٨٠% من الشعب نجدهم في أي مجتمع قابلين للإيحاء والاستهواء، وعادة ما يأخذون الوعود من هؤلاء الأذكياء المتفوقين بمنتهى الأمانة والبساطة، فيصدقونهم ويمشون وراءهم كالمنومين، وليس أدل على هذا من أن أوروبا المتحضرة أهلكت أربعين مليون شخص في حربين عالميتين ضاريتين لأسباب لا معنى لها.. ولكن من أجل النعرة والكرامة والسيطرة على الآخرين.. وهل يصدق أحد مثلا أن المواطن الألماني المتحضر الذي يقرأ جوتة ويسمع بيتهوفن يمكن أن يمشى كأحد عناصر القطيع وراء شخص مثل هتلر أقنعه بأن ألمانيا فوق الجميع وأنها يجب أن تحكم العالم.

هل يؤثر مرض الزعماء في قراراتهم؟

لابد أن يؤثر.. وقد ثبت مثلا أن أنتونى إيدن قد اتخذ قرار الحرب ضد مصر في العدوان الثلاثي وهو تحت تأثير عقار الأمفيتامين، وهو نوع من المنبهات العصبية، التي كانت تشعره بضلالات وأفكار خاطئة تمنعه من اتخاذ القرار السليم.. كما ثبت أن رئيس وزراء فرنسا في نفس الحرب وهو جى موليه كان واقعا تحت تأثير الكورتيزون.. وحدث أن لاحظ المسؤولون السوفييت أن ستالين بعد أن حكم لسنوات طويلة

وبقبضة من حديد قد بدأ يشك في كل من حوله، واقترحوا عليه أن يجلس مع مجموعة من أكبر أطباء النفس في الاتحاد السوفيتي، وحدث اللقاء بالفعل وكتب الأطباء تقريرا علميا قالوا فيه إن ستالين يعاني اضطرابا ضلاليا، أو اضطرابا برانوييا، يدفعه إلى الشك في كل من حوله، وتلك صفة ملازمة لكل المسؤولين الذين يبقون في أماكنهم لسنوات طويلة، لأن الواحد من هؤلاء يشعر بالتمركز حول الذات، وأنه رمز لهذا البلد، وأنه المخلص له، ولهذا يجب التخلص تماما من أية معارضة لحكمه.. وهذا ما حدث مع أطباء ستالين إذ ما كاد يقرأ تقريرهم حتى أمر بإعدامهم جميعا.

هل صحيح أن الطب النفسي أصبح أحد فروع أجهزة الأمن القومي، بحيث يخضع أيُّ رئيس أو زعيم لتحليل شخصيته لمعرفة ردود أفعاله؟

هذا يحدث في جميع دول العالم، ولكنه لا يصدق على البلاد العربية، لأن أحدا لا يمكن أن يتنبأ أو يتوقع الردود العاطفية الانفعالية للإنسان العربي.. إذ لم يصدق كائن من كان في جميع أجهزة المخابرات العالمية أن يخرج الشعب المصري كله ليطالب ببقاء عبد الناصر بعد هزيمة عام ١٩٦٧، مع أن المفروض أن يعزل ويحاكم كقائد مهزوم.. ولكن ما أعرفه أن المخابرات الأمريكية استخدمت جميع أطباء النفس الموجودين في الجمعية الأمريكية للطب النفسي لدراسة شخصيتي السادات وبيجن قبل مباحثات كامب ديفيد، واستطاعوا أن يحسبوا بدقة ردود أفعالهما.. فلقد وقع السادات وبيجن على الرغم من أن كلاهما كان يتوقع أن تأتي نهايته مع هذا التوقيع.. حيث اغتيل السادات بسبب الاتفاقية، ومات بيجن مكتئبا لإحساسه بأنه خسر سيناء.

هل هناك تقديرات تخيب فيها توقعات أطباء علم النفس وأجهزة المخابرات أيضا؟

نعم .. وأبرز مثال أمامنا هو حالة صدام حسين، فلقد ظنت أمريكا بكل أجهزتها أن الشعب العراقي سوف يسقط صدام حسين بعد حرب الخليج الخاسرة، ولكن خاب هذا التوقع، لأننا نرى العراقيين الآن أكثر تمسكا بصدام، بل إننا نرى كثيرا من العرب يتخذونه رمزا للوقوف في وجه أمريكا. إن نموذج صدام وشعبه يذكرني بمقولة الطغيان الشرقي، التي قال بها الفلاسفة، حيث أكدوا أننا كشرقيين مؤهلون لتقبل الحاكم الطاغية المستبد.. فكيف يحدث هذا؟

من الممكن خداع الشعب، وعمل غسيل مخ له عن طريق إغراقه بمعلومات تثير فيه النعرات الكاذبة، وقد ضربنا مثلا بشعب متحضر هو الشعب الألماني الذي ساقه هتلر إلى المذبحة كالقطيع .. والمهم أنه مادام أن أجهزة الإعلام في يد الحاكم وأنه يسخرها من أجل تأكيد صورته، فسيظل عنصر السيطرة

للطاغية قائما.. والشخص من هذا النوع نصفه علميا بأنه "Ruthless" وهو الإنسان الذي يفعل أي شيء وكل شيء من أجل نفسه فقط.. إنه يريد اللذة.. لذة القوة.. لذة السيطرة.. لذة المال.. لذة الجنس .. ويختلف الزعماء من واحد إلى آخر في سبل الحصول على تلك الملذات كلها.

عبد الناصر مثلا لم تحركه لذة المال أو الجنس، بل كانت تسيطر عليه لذة السلطة حيث يحرك العالم العربي بأطراف أصابعه.. أما صدام حسين فتحركه لذة القوة.. لأنه يريد أن يصبح العراق سيد العرب وصدام هو حاكم العرب وزعيمهم الوحيد.. أما الرئيس الفلبيني الراحل ماركوس فلم تحركه سوى لذة المال، حيث أخذ ثروة الشعب كلها لنفسه، وهو عكس الرئيس الأرجنتيني منعم كارلوس الذي يسعى إلى الجنس فقط، حيث تزوج وهو في السبعين فتاة في الثلاثين هي ملكة جمال في أمريكا اللاتينية.. وهناك زعماء لا تحركهم كل هذه الشهوات، بل تدفعهم الهيمنة إلى أن يصبحوا نماذج مستهينة بالمجتمع، مثل الخميني، الذي كان يدفع أطفالا في الخامسة عشرة إلى الموت وهو يقنعهم بأنهم سوف يدخلون الجنة.

وأخيرا في كتاب Stephen M.R. Covey عن أهمية الثقة لإنجاز العمل The Speed of Trust الصادر في ٢٠٠٦ و بعد ١٧ عاما من صدور كتاب والده R.Covey Stephen ٧ عادات للأشخاص المؤثـــرين، يشير المؤلف إلى استقصاء Harris Poll الذي كشف انخفاض معدلات ثقة الشعوب في حكوماتها وأجهزة الدولة والإعلام.

هذا ويستعرض الكاتب خمس درجات للثقة (Waves of trust)

١. الثقة الذاتية (Self Trust)
٢. الثقة في العلاقات مع الآخرين (Relationship Trust)
٣. الثقة في المؤسسات (التي تعمل بها أو تنتمي إليها) (Organizational Trust)
٤. الثقة في السوق و آلياته و سمعة الشركات (Market Trust)
٥. الثقة في المجتمع و القدرة على المساهمة في هذه الثقة (Social Trust).

ففي الولايات المتحدة على سبيل المثال كانت نسبة الثقة في الإعلام ٢٢% وفي الأحزاب السياسية ٨%، وفي الحكومة ٢٧%، وفي الشركات ١٢%. كما يوضح في الكتاب استنتاجات عالم الاجتماع البريطاني David Halpern من أن درجة الثقة في الآخرين تبلغ ٣٤% في أمريكا، و٢٣% في أمريكا اللاتينية، و١٨% في أفريقيا. أما بريطانيا فقد انخفضت من ٦٠% في خلال ٤٠ عاما إلى ٢٩% فقط حالياً. أما بالنسبة للدول الاسكندنافية قد شهدت أعلى نسبة وهي ٦٨%.

وفي الولايات المتحدة كذلك كان ٧٦% من الموظفين والعاملين على علم بأعمال منافية للقانون أو أخلاقيات العمل على مدار ١٢ شهر و لم يفصحوا عنها لأنها قد تؤثر سلبا في ثقة الجماهير. أما عن الثقة الذاتية أو الأمانة الشخصية فبسؤال طلبة جامعيين بالولايات المتحدة عن نسبة من قام بالغش لتحسين

فرص نجاحه و درجاته وجد المؤلف أن ٤٣% من طلبة الآداب والفنون و٥٢% من طلبة الإعلام والتعليم و٦٣% من طلبة الطب والقانون و٧٥ % من طلبة التجارة قاموا بالغش!!

في كتابه "العالم مسطح" (The World is Flat) يشير توماس فريدمان إلى أنه لا يمكن أن تتحقق العولمة وانفتاح المجتمعات بعضها على البعض الآخر بدون الثقة حيث لا يوجد أمن كاف لمراقبة وحراسة المجتمعات، ضاربا المثل بقضية الجدار في فلسطين والحاجز الأمريكي مع المكسيك حيث يجسد الجداران، بشكل ملموس، غياب الثقة بين طرفي الجدار.

أحد الأكاذيب التي تتداول في علم الإدارة هي أن الثقة تعتبر ضعفًا، إلا أنها في حقيقتها قوة يمكن قياسها على السرعة والتكلفة وتستند إلى الشخصية والكفاية وبالتالي تعد حجر الأساس في تكوين الذات وتنمية العلاقات والتكيف مع المجتمع وهذا أحد عناصر الصحة النفسية.

الخلاصة

لا نجاة لنا إلا إذا جعلنا الضمير العام الشاغل الأول لنا حتى يستقيم المجتمع كله بدلاً من الأنين والشكوى الجماعية وكأن ما يقع مثاراً للشكوى هو في مجتمع آخر، أو نتحايل على تبرير فسادنا بدعوى أن أجنبياً وراء ذلك؛ ولنتأكد أنه لو أراد لنا الغرباء هذه الشرور المستطيرة لما استطاعوا دون تعاون منا ! وأظن أن ممارستنا حتى الآن تقدم هذه المعاونة للغرباء بأحسن ما يكون الأداء، ومع ذلك فإنني أشك كثيراً في أن الغرباء مشغولون بنا إلى هذا الحد، فلو كنا شاغلهم لما تفرغوا لما يحققون كل يوم من إنجاز نكتفي نحن أمامه بالانبهار.. فهل نبدأ؟! . ومتى ؟!.

علينا أن نقطع الطريق على تلك القيادات التي تمارس غسيل المخ للشباب الضائع، وتبث الأفكار التي من شأنها إغراق هذا الشباب في غيبوبة فكرية، تصل به إلى حد التنويم الكامل والإقدام على أي شيء في سبيل هذه الأفكار، فهذا الاستفزاز الترفي في الواقع هو أحد أسباب اشتعال نيران التطرف وسط الأغلبية التي تعاني والكثيرين العاجزين عن توفير المأوى أو القوت لأنفسهم، مما يسهل مهمة قادة الأفكار المتطرفة في إقناع ضحاياهم بالاستشهاد من أجل هذه الأخطاء، والوعد بالجزاء العادل والحياة الناعمة المؤجلة إلى العالم الآخر. علينا أن نعلم الصغار احترام آراء الآخرين وتقديس حق الاختلاف في الرأي. لابد أن نغرس فيهم إدانة لكل ما يكرس القبح في الروح وأن ننشئهم على أن العمل وحده هو السبيل الوحيد إلى التقدم. إن الذي يرى طفله شاطرًا أو فهلويًّا لأنه نجح في الغش من زميله على مقاعد الدرس، لا يدرى أنه بمباركته هذه لفعلة ابنه إنما يعد للوطن رجلاً فاسد الخلق عديم الضمير، ولا يدرى أنه يسهم دون أن يدرى في أن يظل الضمير الاجتماعي العام عرضة لثقب بعد آخر يتسع يومًا بعد يوم ..

قدري حفني:

نشكر الدكتور أحمد عكاشة على محاضرته الممتعة التي كنت مستغرقا فيها تماما.

مشيرة إبراهيم محمد:

إذا كان هناك صحوة دينية كما يردد الكثيرون في وسائل الإعلام، فلماذا اتجهت هذه الصحوة نحو الشكليات إلى درجة المغالاة على حساب الجوهر؟ ولماذا لم تشمل هذه الصحوة صحوة سلوكية وترقٍّ في السلوكيات التي هي جوهر الدين؟

أحمد عكاشة:

هذا سؤال مهم، يا ليتني أستطيع الإجابة عليه، لكن كما نعرف جميعا، إن الإعلام موجَّه بواسطة رأس المال، ورأس المال يستطيع أن يضيف الكثير على جوهر الإعلام، والإعلام الموجود عندنا عبارة عن إعلام تخديري يدعو إلى أن تسكن البلاد العربية وتستكين، ويتم ذلك ما عدا محطة واحدة أو محطتان تواكبهما البلاد العربية على الرغم من أن معظمها قد أغلق مكاتب هذه المحطات التي تقول الحقيقة كلها. إن الطقوس والشكليات الموجودة الآن نابعة أصلا من النظام الوهابي، ومعظم المحطات العربية الموجودة في كل البلاد العربية تتبع المذهب الوهابي والذي يهتم للغاية بالطقوس، ومن السهل ملاحظة من يتبعون المذهب الوهابي في سلوكهم وما ينادون به، وماذا يفعلون بعد الخروج من بلادهم، ومادام لا يوجد وعي جماعي وضمير جماعي من العامة فإننا سنستمر بالطريقة نفسها. ولا يجب أن ننسى أنه في كل بلاد العالم يُعَدُّ التليفزيون غذاءً للمخ، أما في بلادنا فهو طرب وتسلية، كل تليفزيونات العالم تنتهي في الحادية عشر مساءً، لا يوجد تليفزيون في العالم يستمر طوال الليل إلا للأخبار لأن المواعيد في كل بلد مختلفة، أما أن نترك أولادنا يسهرون أمام التليفزيون للساعة الواحدة صباحا ثم نطلب منهم الاستيقاظ للمدرسة في السادسة صباحا فإن هذا من نتيجته أن يصبح جميع أولادنا قصار القامة لأن هرمون النمو يُفرَز في الطبقة العميقة من النوم التي تستغرق من ست إلى سبع ساعات، وهذا الهرمون لا يُفرز أبدا في أثناء النهار، وهو المسؤول عن طول قامتنا، وستكون من نتيجة نقصه أن تظل قاماتنا تقصر حتى نصبح شعبا من الأقزام!

قدري حفني:

وتأكيدا لما قاله الدكتور أحمد عكاشة، فقد قرأت دراسة قيمة حول أن الأربع شبكات تليفزيون الرئيسية في المنطقة العربية تمويلها سعودي، وكل شبكة فيها لابد أن تحتوي على مجموعتين من القنوات: مجموعة دينية وهابية ومجموعة كليبات عُري، وهذه الشبكات معروفة، وقيل إن وجود النوعين ضروري، بمعنى أن نشاهد العُري فنُصدم فنلجأ إلى القنوات الوهابية!

رامي علي أبو الفتوح:

لماذا الشباب في معظم أوقات عمرهم يشعرون بالاكتئاب والاغتراب؟ لماذا لا نشعر بالسعادة والارتياح على أرض وطننا؟ لماذا يميل المواطن في حياته إلى السلبية والأنانية؟

أحمد عكاشة:

أعتقد أنني سبق وأجبت على هذا السؤال، لكنني سأعيد تلخيصه: مادام المواطن لا يشعر بأن له دورًا في هذا المجتمع وأن له حرية في الرأي، ومادام أنه يشعر بالعجز واليأس الملازم لما أسميه الاكتئاب الوطني، إن ما تشعر به نشعر به جميعا، وللدكتور قدري حفني جملة أكررها دائما :"العنف يولد العنف"، نحن لا نستطيع تغيير فكر إنسان بسجنه أو اعتقاله أو تعذيبه، إن النتيجة هي توحده مع أفكاره أكثر، ويحدث هذا منذ بداية التاريخ، لا يُمكن أن يحارب الفكر إلا بالفكر.

إن هذا شعور طبيعي، فلا توجد حرية رأي حقيقة، ولقد ذُهلت عندما عرفت أن هناك من أعلن رأيا على الإنترنت سُجن بسببها أربع سنوات بعد محاكمة عسكرية! وهناك فرق بين حالة اكتئاب وطني لا أستطيع كطبيب أن أفعل حيالها أي شيء، وحالات الاكتئاب الخاصة التي أقوم كطبيب بعلاجها بنسبة شفاء ٧٠ إلى ٨٠%.

قدري حفني:

توجد مجموعة من الأسئلة وردت إليّ تدور كلُّها حول الحل، وما إذا كانت هناك وسيلة نفسية اجتماعية من الممكن الاستعانة بها للتسامي على العجز واليأس من مشكلات المجتمع؟

أحمد عكاشة:

أنا متفائل على الرغم من كل شيء، توجد صحوة في مصر، ولا أقصد الصحوة الدينية التي تعني الطقوس، ولكنني أقصد الصحوة التي نشعر بها جميعا والتي تبينها الأسئلة التي تطرحونها، وهذا معناه أننا وصلنا إلى حالة من العجز تدفعنا إلى البحث عن كيفية التحسن، ومن ثم، يحتاج ٨٠% إلى القدوة، أما نسبة الـــ ٢٠% المتبقية فهؤلاء هم الذين يتم اعتقالهم وسجنهم، وهؤلاء جميعا هم من سيقودون هذه البلد، لابد أن نبدأ بالطبقة العريضة من الشعب، وفي كل بلاد العالم ظهرت جميع القدوات من الطبقة الوسطى، وهذه الطبقة قد انهارت في مصر حيث لا يوجد الآن إلا الفقراء والأغنياء دون وسط. ولذلك أرى ضرورة المطالبة بحقوقنا، ولن يعطينا أحد شيئا لا نأخذه، ولن يتنازل لنا أحد عن شيء لأن من يملك كل شيء لا يمكن أن يعطينا ما يملكه، بل لابد أن نأخذه نحن.

وكنت أحاضر في بيروت منذ قرابة ستة أيام، ووجدت أن أعضاء حزب الله مضربين منذ قرابة ثلاثة شهور ويقيمون في خيام ويقومون بعمل دوريات سهر ومبيت، وحينما كنت أتناول عشائي في أحد المطاعم، وجدتهم يرقصون أمام المطعم، وأروي ذلك كدليل على أنه حتى في أثناء الإضراب فإنهم لا يقومون بأي اعتداء ولا تحطيم، نحن لا نريد العنف حتى في التعبير عن الاحتجاج. لقد عشنا خمسين عاما دون أن تكون عندنا أية قدرة على الكلام أو التصرف مما رسخ في داخلنا ثقافة العجز واليأس، وليس ثقافة التفاؤل والمرح والابتسامة.

قدري حفني:

إن السلبية التي بُنيت عبر نصف قرن لا نتصور أنها ستنتهي في لحظة، إن هذا ليس مرضا سنعالجه بأن نأخذ علاجا له ليشفى، لكن، هناك بدايات لا ينبغي أن نفقد الأمل فيها، وهناك ناس تتكلم وتتحرك وتدفع ثمن الحركة.

ورد إليّ سؤال عن الأثر النفسي للشعوب التي تُحكم باستبداد سياسي.

أحمد عكاشة:

من المعروف أن أي نظام شمولي يُفرز عدة أشياء، أولها ما يسمى بالشكوك ومعظم من يعانون من هذه الشكوك ينتابهم الإحساس أن أجهزة الأمن تتبعهم أو أن المخابرات تراقبهم وهناك من يتنصت عليهم ويقوم بتصويرهم على غفلة منهم، كما تكون لديهم شكوك ضد كل من يحيطون بهم وبأنهم يريدون قتلهم مثلا بدس السم في طعامهم أو أي شيء من هذا القبيل، هذا الشك وعدم الثقة يزدادان بشدة في

ظل النظام الشمولي. أيضا، تزيد حالات الاكتئاب في ظل النظام الشمولي، في حين تنهار القدرة على الابتكار والإبداع والتذوق الجمالي، وذلك لأن فردية الإنسان وآدميته تنهار مما يسبب في حدوث أزمة هوية، إذا فقد الإنسان احترامه لذاته فإنه لا يمكن أن ينتج، وعندما كان الدكتور بطرس غالي أمينا عاما للأمم المتحدة قال جملة أخذتها وقتها شعارا للجمعية العالمية للطب النفسي: " الصحة النفسية هي أساس الإنتاج أو أساس الاقتصاد وأن أكثر البلاد التي تعاني في هذا الجانب هي البلاد النامية"، إن العناية بالصحة النفسية ليست رفاهية للغني، لكنها مسألة مهمة، إن الصحة النفسية تعتمد أولا على أن تعمل وتعطي، ولا نستطيع أن نطبق ذلك في مصر لأن العمل الجاد لن يوصلنا إلى أيَّ شيءٍ لأن المسألة تسير بالوساطة والمحسوبية، وإذا أحب الشخص ما يفعل يُقال عنه أنه طيب أو عبيط، كما أن التمركز حول الآخر غير موجود في مصر، فلماذا يتمركز الشخص نحو الآخر الذي لا يمنحه أيَّ شيءٍ؟ لكن، إذا صممنا أن نقف وأن نضحي فقد نغير هذا الوضع المخزي، وقد مكث مانديلا ٣٧ عاما في السجن، وعندما خرج وتولى رئاسة دولة جنوب إفريقيا تنازل عن الحكم بعدها بثلاث سنوات.

قدري حفني:

ورد إليّ سؤال أجده متميزا وسط الكثير من الأسئلة المتكررة: "ألا ترى أن الموظف قد أصبح يأخذ الرشوة في السنوات الأخيرة ليس فقط لثقوب في الضمير ولكن من الفقر أيضا الذي وصلت نسبته إلى ما يزيد على ٣٠% من الشعب المصري وأصبح موظفو الحكومة يلجأون إلى الرشوة لسد العجز في متطلبات المنـــزل".

أحمد عكاشة:

أوافق تماما لأن الراتب الذي يحصل عليه موظف الحكومة لا يمكن أن يواكب أعباء الحياة، حتى الطبيب الذي يمضي أكثر من أربع عشرة سنةً في وزارة الصحة يأخذ ٣٠٠ جنيه، في حين أن الشغالة الفلبينية تحصل على ٣٠٠ دولار بما يوازي أكثر من ١٦٠٠ جنيه، وفي المنتجع الصحي للطب النفسي الخاص بي في القاهرة يحضر إليّ طبيب ويطلب مني أن يعمل تمرجيا، لأن التمرجي يأخذ ٤٠٠ جنيه في حين يأخذ الطبيب في فترة نيابته ١٥٠ جنيه، ويكون ردي إنني لا يمكن أن أقوم بتعيين طبيب في وظيفة تمرجي، وكل أفراد الأمن في المنتجع من خريجي الجامعات وكذلك الحال مع من يعملون على التليفونات، إن كل هؤلاء خسارة كبيرة تعاني منها مصر، وقد استفحل الأمر بعد أن أوقفت الدولة التعيينات.

قدري حفني:

أرجو ألا يُفهم من حديث الدكتور أحمد عكاشة أن الفقر يبرر السرقة، لأن هناك نماذج عديدة لفقراء رفضوا الرشوة، وقد قرأت عن مهندسة رفضت رشوة مليون جنيه، وعندما طلبوا منها الظهور في التليفزيون اندهشت قائلة هل أصبح رفض الرشوة هو الاستثناء؟

ورد إليّ سؤال يقول: "هل يوافق الدكتور أحمد عكاشة على أن الفكر والسلوك المصري يتسم بالازدواجية وهي سمة من سمات الشخصية المصرية المعوقة لتقدمها؟ ومن أين نبدأ إصلاح الشخصية المصرية؟ وهل هناك تطبيقات لتجربة ما في المجتمع المعاصر؟

أحمد عكاشة:

إن الازدواجية الحادثة نتيجة أن كل شيء يتم مختلف عن الواقع، بمعنى أن الطفل يرى مثلا أن والده يسلك في البيت سلوك يختلف عن سلوكه في العمل، يتحدث مع أصدقائه بطريقة تختلف عن تلك التي يتحدث بها مع أولاده، يتحدث عن الفضيلة وهو يكذب ويسرق، وبالتالي قد أحدث ذلك خللا وسبب في ازدواجية شديدة في كل مناحي حياتنا. لابد أن نبدأ بالطفل، ولا يمكن أن نتقدم إلا إذا تحسن التعليم، وهذه استراتيجية طويلة المدى لن تتم في عهد وزير واحد أبدا، بل ستتم في عهد عشر من الوزراء على الأقل، لكن لابد أن نتخلص من الأنانية وأن لا يكون هناك تمركز حول الذات، إلا أنه للأسف بعض الوزراء متمركزون حول ذواتهم أيضا ولا يعرف معظمهم لماذا جاء ولا متى سيخرج، لا توجد في مصر كوادر سياسية، ولا يوجد في العالم كله وزير داخلية ضابط شرطة سوى في مصر وبعض البلاد النامية، وفي فرنسا تتقلد سيدة منصب وزير الدفاع، لا يوجد وزير دفاع ضابط جيش ولا يوجد وزير تجارة أستاذ في التجارة، وأيام الملك فاروق، لم يحدث أن كان وزير الصحة طبيبًا في الأساس. إذًا، فالموضوع يؤكد أنه منذ خمسين عاما لا توجد كوادر سياسية، وأي كوادر تظهر الآن تُبنى من الخير الموجود بداخلهم والتضحية في سبيل الآخر وهؤلاء هم الذين سيقودون، لأن الموجودين حاليا من المستحيل أن يقودوا، والشعب المصري فعَّال بطبيعته، وتحمل الجينات في الشعب المصري إيمانا شديدا وقويا، أما التصرف في الدين بطريقة خاطئة فهو مسألة أخرى، فالمتأصل فينا جميعا هو الإيمان.

قدري حفني:

ورد إليّ سؤال يقول: "كيف يؤثر الازدحام في كون الإنسان يصبح أكثر تمركزا حول ذاته على الرغم من أنه يؤدي إلى تعدد العلاقات الاجتماعية؟"

أحمد عكاشة:

هذا سؤال جميل، وتوجد حول إجاباته دراسات عديدة، لننظر إلى إحدى العمارات مثلا، سنجد أنها مكونة من خمسين أسرة وكل أسرة بها ثلاثة إلى أربعة أفراد، ولننظر على شكل آخر للسكن يعتمد على بيوت متجاورة، سنجد أن الوقت المخصص للاتصال بالآخر سيكون أكثر، لقد جعل الفقر الناس يعملون من الصباح وحتى المساء، ولا يمكن أن توجد الصحة النفسية إذا عملنا أكثر من ثماني ساعات في اليوم الواحد، وإذا لم نحصل على يومين إجازة في الأسبوع، وإذا لم نحصل على خمس وأربعين يوما إجازة في العام، لا يوجد مصري يستطيع أن ينفق على بيته دون أن يعمل في وظيفتين، بالإضافة إلى عمل الأم، مع ترك الأطفال وحدهم، كل هذه المظاهر الاجتماعية تؤثر على كل ذلك، ويجبرنا الازدحام على أن نفكر في أنفسنا، فإذا كان أحدهم يعيش في حجرة واحدة يشاركه فيها خمسة أو ستة أفراد بالإضافة إلى بعض الحيوانات مثل بقرة أو حمار أو بعض الدجاج، عندما يجتمع كل هؤلاء في مكان واحد فلن يفكر أحد في الآخر على الإطلاق، بل لن تكون هناك عاطفة أساسا لأنه سيتساوى في نظر نفسه مع هذه الحيوانات، وتكون النتيجة أن يرى أنه إذا لم يفكر في نفسه فإن ما يحيط به سوف يدوسه، هذه بالضبط سيكولوجية الازدحام. كما يجعلنا الازدحام غير قادرين على تجاوز أنفسنا، لابد أن نتجاوز أنفسنا حتى نستطيع أن ننتج وأن نفكر.

قدري حفني:

ورد إليّ سؤال: " أليس الحل لتغيير الواقع السلبي أن نبدأ بتغيير أنفسنا أولا، "وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"، السؤال هو: "أريد أن أعرف ما تأثير فوضى اللغة على المواطنة؟ وما هو دور الإعلام في هذه الفوضى؟"

أحمد عكاشة:

إنني أتحدث طوال الوقت عن أنفسنا، والهدف هو تغيير ما بأنفسنا وهذا هو ما يجب أن نبدأ به بالفعل، وأن ننظر ليس فقط إلى أنفسنا ولكن إلى من نربيهم من أولادنا. وقد حدث أن طُلب من الشيخ عمر مكرم أن يحكم فأجابهم بأن المصري لم يُخلق لكي يحكم وقام باستيراد محمد علي باشا الذي كان من أفضل من حكم مصر، إن المصري غير معتاد على حكم نفسه بنفسه، وكان الرئيس جمال عبد الناصر أول مصري خالص يحكم مصر منذ عهد الفراعنة.

قدري حفني:

ورد سؤال يقول: "ما هو رأي سيادتكم للنهوض بمستوى التعليم في مصر في ضوء ما قلته في هذه المحاضرة؟"

أحمد عكاشة:

يوجه التعليم الإنسان إلى ثقافة علمية، ولن يتم ذلك أولا إلا بتقليص المناهج، وقد رأيت أحد كتب التاريخ التي تدرسها إحدى المدارس الأمريكية في مصر، ووجدت أنه مختلف تماما عنا، حيث يدرسون تاريخ الأديان منذ المصريين القدماء مرورا بالهنود والصينيين ثم الأديان السماوية وأماكن نشأتها والبلاد التي تدين بهذه الأديان ومميزاتها، وكل ذلك مقدَّما بصور، ويفسر الكتاب أن قدماء المصريين هم أول من آمن بالعالم الآخر، ثم ينتقل إلى الحديث عن بوذا وكونفوشيوس وفي الكتاب تدعو هذه الديانات إلى الخير إلا أن اتباع هذه الديانات لا يؤمنون بالآخرة، بل يؤمنون أن الروح على حسب عمل صاحبها تحل في جسد أفضل حتى تتصل بالله فتكون حالة النرفانا التي تمنحها الخلود ولا تكون هناك حاجة لنـــزولها على الأرض مرة أخرى. ولنتصور أن يتم نشر هذا الكلام لطفل لا يتخطى عمره التاسعة، من المؤكد أنه سينشأ محبا لكل الأديان وكل الناس لأن هذا الكتاب يقول إن الأديان كلها خير ولا يهدف أي دين إلى الشر. وأعرف أنه في السعودية يدرسون للأطفال أن غير المسلم مباح للمسلم ! وهذا تعصب غير طبيعي وهذا ليس دينًا، وأكثر ما يؤلمني أن أسمع كلمة "التطرف الديني" ولا أعرف من الذي اخترع هذا المصطلح، لا يمكن أن يكون هناك دين ويكون فيه تطرف، وعندما يكون هناك تطرف فلا دين، بل هي السياسة، لا يمكن أن يكون المتدين متطرفًا، و لم يكن هناك أي نبي يتطرَّف أو يدعو إلى التطرف.

قدري حفني:

سؤال ورد إليّ: "كيف تتم تنمية الذكاء العاطفي؟"

أحمد عكاشة:

توجد الكثير من الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع باللغة الإنجليزية تحت عنوان Emotional Intelligence، ويتم قياس هذا الذكاء العاطفي بمقياس مشابه لمقياس الذكاء العادي، وتوجد أساليب لتنميته، وهو في النهاية هبة من الله، وحتى الذكاء المعتاد لا نرثه عن آبائنا وأمهاتنا، ومن

الممكن أن ينجب عبقري طفلا متخلفا عقليا والعكس صحيح، كما أن ٥٠% من الشخصية وراثي، ومن الممكن أن ينجب أحدهم طفلين، أحدهما منطو ويقضي نهاره في القراءة والاستماع إلى الموسيقى، والآخر يتجول في المدينة طوال النهار مع أصدقائه، الأول انطوائي والثاني انبساطي، على الرغم من أن كلاً منهما من الأم نفسها والأب نفسه، لكن ميلاد كل منهما جاء باستعداد معين. والذكاء العاطفي هو أيضا استعداد، لكن لابد أن يواكب عصره، ولا يصلح كل شخص لأن يكون قائدًا أو نجمًا، ولابد أن تتم تنمية التواصل العاطفي عن طريق الإحساس بالآخر، لكن مع وجود صحة نفسية سيئة وتمركز حول الذات، فإنه من الصعب أن تتواصل عاطفيا مع الآخر، وأقرب مثل الزوج والزوجة، فإن ضمهما التواصل العاطفي فإن الحياة ستكون أسعد كثيرا، أما افتقاد التواصل العاطفي بينهما فإنه قد يؤدي إلى الطلاق في أغلب الأحيان.

قدري حفني:

ورد إليّ سؤال من طالبة تقول: "عندما أرى من حولي يفعلون الخطأ، ماذا يجب أن أفعل؟ هل أتوجه بالنصيحة أو ألتزم الصمت مع العلم أن الشائع الآن هو أن من يتوجه بالنصيحة يُتهم من هؤلاء السلبيين بأنه شخصية معقدة؟

أحمد عكاشة:

لابد أن تعبر عن رأيها لكن على شرط أن يكون بطريقة يتقبلها من هم أكبر سنا، لأنه ليس من الصعوبة تغيير من هم أكبر سنا بسهولة إلا حين يدركون أن الأصغر دائما أفضل وأنه يجب الاستماع إليه، ويجب ألا نفقد الأمل مع من هم أكبر سنا خاصة الوالدين. ومن دون شك إن الوالدين يحبان أبناءهما أكثر من حب الأبناء لهما، وهؤلاء الأبناء لن يدركوا محبة أبويهما إلا حينما ينجبون بدورهم. وعندما تتزوج المرأة يكون زوجها رقم واحد في حياتها، وعندما تلد الطفل الأول يكون الرقم الثاني وعندما تلد الطفل الثاني يكون الزوج رقم ثلاثة، وهكذا، والزوج سعيد لأن هؤلاء في النهاية أولاده ومن سيحميهم وسيحمي بيته غير هذه الزوجة التي يعرف أنها بالتأكيد الأقوى؟ وفي جنوب أمريكا يؤمنون إيمانا تاما أن معجزة السيدة مريم العذراء أكبر من معجزة المسيح، ولذلك هم يكبرونها إكبارا كبيرا، بعكس الكنيسة الكاثوليكية التي تريد أن تكون الذكورة هي الأساس، وبالتالي يمجدون المسيح أكثر منها، ومن شاهد فيلم "شفرة دافنشي" سيعرف أن فكرته بالكامل قائمة على أن الكنيسة الكاثوليكية حطمت مريم المجدلية وقالوا عنها إنها عاهرة على الرغم من كونها كانت ألصق الناس بالمسيح، هذه أفكار كثيرة،

لكن ما أريد الوصول إليه هو أنه من الممكن للفتاة أن تقول لأبيها وأمها ما تراه صائبا دون أن تحتوي الطريقة على نوع من الثورة أو العدوانية أو الاستهزاء، وقد قال جبران خليل جبران جملة مهمة وأتمنى أن نحفظها جميعا:"إن الأب أو الأم مثل القوس وإن الابن أو البنت مثل الرمح، القوس ينحني والرمح ينطلق، ولا يمكن للقوس أن يلحق بالرمح".

قدري حفني:

ورد إليّ سؤال من أحد الشباب يقول: "لماذا يوافق الشاب على تنظيف الأطباق في أمريكا ولا يوافق أن يفعل ذلك في بلده؟"

أحمد عكاشة:

الموضوع بسيط للغاية، لأنه في أمريكا حتى لو كان الشاب يغسل الأطباق فإنه يتمتع بالاحترام والآدمية، أما في مصر فحتى أستاذ الجامعة لا آدمية له.

قدري حفني:

ورد سؤال عن السبب حول زيادة حالات الانتحار بين الشباب؟ وزيادة الإحساس بالسلبية والقرف من الحياة؟ وما هو السبب وراء قيام الشباب بعلاقات تحت ستار كلمة الحب لتسلية الفراغ والهروب من الحياة؟

أحمد عكاشة:

حتى يحقق الشخص ذاته، لابد أن يشعر أنه إذا عمل فإنه سيصل إلى هدف معين، وقد قرأت اليوم خبرا في الجرائد أدهشني للغاية، فقد ألغى الجهاز المركزي توظيف المعيدين في الجامعات، فما هو الدافع إذًا لكي يكون الإنسان متفوقا؟ وكيف سيكون في حالة سعادة؟

ما أود قوله هو أن من معالم أن يكون الإنسان سعيدا أن تكون له الحرية في التعبير عن رأيه، وأن يبدأ نشاط الطالب العقائدي والحزبي من الجامعة، وألا يكون الموجود فقط هي الفئات المتطرفة، كيف ستكون هناك كوادر سياسية لو لم يبدأ العمل السياسي من الجامعة، وعندما كنت طالبا، كان يُقال إن من لا يكون شيوعيا قبل الثلاثين فهو غبي ! وذلك لأن الشيوعية تدعو إلى إعطاء الخير إلى جميع الفقراء ويجد

الشباب في العشرينيات هذه الفكرة جميلة، في الوقت نفسه، كان يُقال إن كل من يستمر شيوعيا بعد الثلاثين فهو أيضا غبي ! إن الهدف مما أقول هو إنه يجب أن نستغل الأيديولوجيا الموجودة عن الشباب والشابات، فجميعهم ممتلئون بالقيم ونماذج القدوة والقدرات، وهذه هي التي يجب استغلالها، لقد بدأ تشكيل الزعماء في جميع أنحاء الدنيا منذ نعومة أظفارهم، ما عدا في مصر حيث يبدأون ذلك وهم كبار.

قدري حفني:

ورد سؤال يقول: "هل يمكن أن نطبق السياسة اليابانية خلال خمسين عاما للوصول إلى قيادة علمية سياسية تؤمن بالوطن؟"

أحمد عكاشة:

بل أقل من خمسين عاما، فمن الممكن في عشرين إلى ثلاثين عاما أن تتغير كل الأخلاقيات الموجودة.

قدري حفني:

يوجد سؤال عن ظاهرة الهجرة والسفر إلى الخارج، وما إذا كانت من معالم عدم الانتماء للوطن على الرغم من وجود فرص عمل لأغلبية المهاجرين؟

أحمد عكاشة:

لا تُعَدُّ ظاهرة الهجرة عدم انتماء، وقد كنت مؤخرا في جلسة جمعت من ثلاثين إلى أربعين من المصريين المقيمين في كندا وأمريكا، وجميعهم يريدون أن ينهوا حياتهم في مصر، لكنهم جميعا يرون إن مصر لا تعطي شيئا، هم جميعا منتمون للغاية إلى بلدهم خاصة أنهم ولدوا ونشأوا في وقت مختلف عن الوقت الحالي. إنني أعذر كل من يرغب في الهجرة، فالناس تكون منتمية ومؤمنة وتحب بلدها، لكن لا توجد لديهم فرصة للعيش، وتسبب هذه الهجرة إصابة الآباء والأمهات بحالات من الاكتئاب، وهذه هي أحد أسباب زيادة الاكتئاب في العالم العربي، وأحد الأسباب في صراعات شديدة بين الأجيال، فالفتي لا يريد ترك أباه وأمه وحدهما وهما في سن متأخرة، ومع ذلك يجد في الهجرة تحقيق طموحه، في الوقت نفسه، لا يريد الوالدان أن يبعد عنهما ابنهما لكنهما لا يريان له أي مستقبل في بلاده. ومن الممكن أن

تتحسن هذه الأوضاع لو توفر الأمل، والأمل لن يتوفر إلا بثلاثة أشياء: الشفافية والمسؤولية وتداول السلطة.

قدري حفني:

ورد إليّ سؤال: "ما هو دور الطب النفسي في إعادة تأهيل الشخصية المصرية؟"

أحمد عكاشة:

إن الطبيب النفسي مثل أي طبيب، هل يمكن أن يزيل الطبيب الجراح السرطان من العالم؟ إن الطبيب النفسي يعالج فردا واحدا ويساعده على الشفاء إذا استطاع، ولكن ما يمكن أن يفعله الطبيب النفسي أن يعطي رأيه ونصيحته للقرار السياسي، وقد يُؤخذ به وقد لا يؤخذ به، وقد كررت مئة مرة أن أستاذ الجامعة عندما يصبح رئيس قسم، فإن له الحق في دورتين متتاليتين، وفي أي منصب به سلطة أو رئاسة أو قيادة لابد أن يتغير بعد دورتين لأنه يصبح غير قادر على التحديث ويتوحد مع الوظيفة والسلطة مما يجعله غير قادر على العطاء. وقد يكون رجلا نزيها وجادا وطاهر اليد، لكنه سيتوقف عن العطاء بعد دورتين لأن الطبيعة البشرية تؤكد ذلك، ولهذا لا يحدث أبدا في العالم أن يمكث مسؤولون في مقاعدهم عشرين أو ثلاثين عاما.

نادية إبراهيم (وكيل أول وزارة السياحة سابقا):

تدعي الحكومة أو القيادة السياسية أن عملية الإصلاح يجب أن تتم تدريجيا حتى لا تُحدث صدمة، في ضوء تحليل الدكتور أحمد عكاشة للشخصية المصرية، هل نحن فعلا لا نتحمل الإصلاح السريع؟ وهل يحتاج الإصلاح فعلا إلى سنوات؟

أحمد عكاشة:

يُقال بالفعل إن ازدياد نسبة الأمية يؤدي إلى ألا تتحمل مصر تطبيق الديمقراطية مرة واحدة، إن لم تُعطَ الديمقراطية مرة واحدة، فلا تنفع التجزئة، هذه مسألة جمعية لا يمكن تقسيمها، إما كلها إما لا شيء، لأن كل شيء مرتبط بشيء آخر، ولن يعطينا أحد الديمقراطية، بل يجب علينا أن نأخذها.

أود أن أشير إلى مسألة مهمة، إن ٣٠% من سكان أي شعب يعانون من أمراض وأعراض نفسية، ٢٠% منهم فقط هم من يلجأون للعلاج، ومن هذه النسبة الأخيرة ١٠% يلجأون إلى وصفات شعبية وتقليدية وخرافات ليس لها علاقة بالعلم، ومن يذهبون إلى الطبيب النفسي ٢.٥ % و٠.٥% هم من يدخلون المستشفى للعلاج النفسي. كما يوجد ٤٠% من سكان العالم يعانون من اضطرابات في النوم، و٣٥ إلى ٤٠% يعانون من بعض الضعف أو الاضطرابات الجنسية، كما تبلغ نسبة مرضى الاكتئاب في العالم ١٨٠ مليون مكتئب اكتئابًا جسيمًا، وتبلغ نسبة الإصابة في مصر من هذه النسبة ١% أي ما يساوي ما يقرب من مليون و٨٠٠ ألف مكتئب، ومن يتم علاجه من كل النسبة العالمية لا يزيد على ١٠%، وهناك من يتعايشون مع أمراضهم النفسية مثل بعض من يعانون من بعض الأمراض. ففي النهاية، كلنا نعاني من أعراض نفسية، أعراض وليس أمراضًا. وحتى الاكتئاب النفسي من الممكن الشفاء منه، لكن على أن يتوفر نوع من الوقاية لأن الاكتئاب يتميز بإصابة بعض مرضاه بالنكسات عندما تُسلب منهم جودة الحياة. وهناك مئة مليون شخص ينتحرون في العالم سنويا، بمعدل كل ١٦ ثانية توجد حالة انتحار، في أثناء جلوسي معكم الآن انتحر ما لا يقل عن ٣٠٠٠ شخص!! وقد كان الاكتئاب منذ خمسين عاما يصيب من هم في سن ٤٥ سنة وما فوق،وللأسف الشديد لأن العالم عجز عن منح السعادة للشباب، فقد عرفنا من منظمة الصحة العالمية إن غالبية الانتحار أقل من سن ٤٥ سنة.

سعيد حسن زلط:

أتشرف بعرض أفكاري طبقا لمنظور ومدخل أبحاث التحليلات النفسية الحديثة ومسبباتها لزيادة الاكتئاب، إن إنفاق الأسر المصرية على الدروس الخصوصية سنويا ١٥ مليار جنيه لأولادهم مما يزيد من أمراض الاكتئاب العام، كما أن المقدمات الموسيقية المخيفة والمزعجة لنشرات الأخبار بالتليفزيون المصري وما بها من تفصيلات أحداث العالم وما تحويه من أعداد القتلى والجرحى زاد من الأمراض النفسية والاكتئاب العام، فوضى اللغة العربية والتي أتساءل متى يتم تفعيل القوانين لحماية اللغة العربية حيث إن جميع إعلانات المحلات في مصر أجنبية.

ويوجد في مصر ٢٠ مليون تليفون محمول تغذيها محطات للتقوية تنشر الموجات الكهرومغناطيسية التي تزيد حالات التوتر العصبي والاكتئاب العام، وكذلك كابلات الكهرباء ذات الضغط العالي والواردة من السد العالي والتي يسكن تحتها الملايين من السكان الفقراء الذين يقارب عددهم العشرين مليونًا. ولا ينكر أحد التعذيب المستمر في أقسام الشرطة والسجون وداخل سيارات الترحيلات يزيد من الاكتئاب العام للمواطنين.

إن عدم وجود دورات مياه عمومية مجانية في أنحاء مصر يزيد من التوتر والاكتئاب العام لأهل مصر، كما أن زجاجات تعبئة المياه والزيوت الغذائية تسبب أمراض الاكتئاب بسبب وجود عناصر ثلاثي الهالوجين والبوليمار ومركبات الهيبو كربونية والفورمالين المخصص لحفظ الطعام وجثث الموتى والذي يسبب السرطان.

إبراهيم محمد زياد (شاعر غنائي):

يحضرني وصف قاله عمرو بن العاص في وصف مصر: "ترابها ذهب ورجالها خشب لمن غلب"، وأود ربطها بالمثل البلدي المصري الذي يقول :"اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي". أيضا، أذكر ما قاله ونستون تشرشل في أحد خطاباته وهو :"إن الشعب المصري يأكل العيش بالجبن"، وإن المشروعات الكبيرة في مصر مثل قناة السويس والأهرامات بُنيت بالسُخرة، أيضا، عندما يتعرض الشعب المصري للأزمات نجد السلبية، ولاحظت ذلك بوصفي شاعرا غنائيا عندما وجدت أن بعض الأغاني الهابطة والخليعة قد انتشرت في وقت كان لا يُسمح للمرأة فيه أن يظهر منها ظفر واحد. وقد امتدت الأغاني الهابطة حتى عصرنا الحالي، وهي في نظري انعكاس للعجز عن التعبير عن الرأي والذي يعاني منه الشعب المصري والذي إذا أعلن رأيه فإنه سيصيبه الضرر.

فايزة صقر (متخصصة في المصريات):

أحيي الدكتور أحمد عكاشة على محاضرة اليوم خاصة وأنه قد أعطى الحضارة المصرية القديمة العمق الذي من المفروض أن نعود إليه، وهذا العمق يتعلق بسمات الشخصية المصرية الفرعونية ربما تكون جيناتها مازالت موجودة في نفوسنا والتي أتمنى أننا مربين وأساتذة أن نعيد هذه الشخصية بسماتها مثل التدين وعدم التطرف والاتقان والانتماء، والثلاثية الروحية التي عرفها المصري القديم "البا" و"الكا" و"الخت" هي التي وفرت له الاستقرار النفسي، لم تكن هناك سُخرة، ولم يكن المصريون يعبدون ملوكهم الفراعنة مثلما يُقال الآن، فلو درسنا الشخصية المصرية القديمة، نجد أنها كانت تتمتع بنوع من الحرية، وهذه الحرية كانت حرية سياسية ودينية في الوقت ذاته، وأتمنى أن نعيد دراسة هذه السمات مرة أخرى.

وأود تحية الدكتور أحمد عكاشة تحية شخصية أيضا، فقد ذكر الدكتور أحمد عكاشة أن الشخصية المصرية قد انهارت منذ خمسين عاما، وأنا أقول إنها انهارت منذ خمسة وعشرين عاما فقط، لأن قبل ذلك قام الدكتور أحمد عكاشة بدور كبير وهام مع أبنائه الطلبة من خلال برنامجه الإذاعي "تذكرة نجاح" والذي كانت مدة الحلقة الواحدة منه خمس دقائق لكنها كانت تشعل نار الحماسة والاندفاع

والسعي وراء المعرفة والنجاح والتقدم، وجيلي كله قد تربى على هذه الدقائق الخمس، وأنا أتحدث وقد تخطيت الخمسين من العمر. وأتمنى أن تتم إعادة هذه التسجيلات لشبابنا اليوم لسماعها.

وأود أيضا الإشارة إلى أن هناك دورات تنمية قدرات ودورات تعليمية، وقد أصبح لدى الأساتذة ورؤساء الأقسام والعمداء شيء من البارانويا حيث يرفضون الاشتراك في أية دورات تدريبية أو تعليمية.

محمد حسنين أحمد:

يحدث خلط عادة عند كل من يعتلي المنصة في المكتبة بين ورقة الدين وبين ما يحدث من سلبيات في المجتمع، ويزيد هذا من السلبيات، وأتمنى ألا يتم الفصل بين منهج الحياة وبين تعايشنا وبين ما يحدث لنا. إن التطرف والسلبيات هي الظاهرة ولا يذكر أحد لإيجابيات، على الرغم من أننا لو ركزنا على الإيجابيات سنجد أن كل مشكلاتنا سيتم حلها دون معاناة ودون بحث ودون أن نفقد توازننا النفسي. وأود أن أشير إلى أن دور الإعلام يهمِّش النقطة التي أثرتها، لأنه يعلم أن إيجابيات هذه الورقة لن تكون في صالحه، وكلنا يعمل ذلك.

ضحى أحمد (مهندسة):

ليسمح لي الدكتور أحمد عكاشة في الاختلاف معه، فقد تحدث عن الشيعة وذكر أن المصريين شيعة قلبا وسنة وجها، وأتمنى أن يقرأ كتاب "الله ثم للتاريخ" وهو ليس آخر الكتب عن الشيعة ولكنه أفضلها، ولو قرأه لتردد قبل أن يقول عن المصريين أنهم شيعة. أشار الدكتور أحمد عكاشة إلى مسألة الحقوق والواجبات، وأن الإنسان في مصر له حقوق يفكر في أخذها لكن عليه واجبات لا يؤديها، وهذا ليس حقيقيا، وشباب مصر بخير، لقد حاول هؤلاء الشباب أن يرجع ما أخذه من بلاده إلا أن البطالة وقفت في وجهه، ومن أين سيأتي النمو المجتمعي؟ أليس من التواصل؟ أيضا، في إشارة إلى التعليم في مصر، أشير إلى أن التعليم بين المؤسسات الأخرى مثل الصلاة، أحد الأركان ولكنه ليس الركن الوحيد، ولا يمكن أن يتم عمل إصلاح في التعليم فقط، إن الإصلاح متواز مع كل المؤسسات، لأنه لو حدث ذلك فإننا سنتخلف ولن نتقدم. أود أن أشير إلى مسألة اللغة، وأنه لن يكون هناك احترام للغة إلا إذا احتُرمت في معقلها مثل المراكز الثقافية، وقد كان هناك حدث لمجموعة من الضيوف الأجانب في أحد المراكز الثقافية وسألنا عن الترجمة فكانت الإجابة أنه لا توجد ترجمة متاحة، فإذا كانت اللغة تُهان في مراكز الثقافة فإنه لا أمل في أن نبحث عن احترامها.

أخيرا، أود أن أشير إلى حادثة مرت بي اليوم سببت لي أزمة نفسية، لقد كنت في حديقة الحيوان بصحبة أولادي، وكانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها مدمنا على الطبيعة، لقد كنت أتعامل مع هذه الفئة من خلال القراءة على أنهم مجرمون، إلا أنني عندما رأيته بعينيّ اليوم ورأيت كيف يسيء الناس معاملته أشفقت عليه، وقد أصابني ذلك بالحيرة بين نظرتي السابقة لهذه الفئة لأنني كنت أؤمن أن كل مدمن هو السبب فيما هو فيه، وبين ما رأيته اليوم ودفعني إلى الإشفاق عليه، بل شعرت أنه ضحية ومجني عليه.

قدري حفني:

اسمحوا لي أن أتقدم باسم مكتبة الإسكندرية وباسم منتدى الحوار بكل الشكر والاحترام والتقدير إلى الأستاذ الدكتور أحمد عكاشة.